وظائف التأليف في الرقائق

أ.د.خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

مدخل: في سبيل استعادة الإنسان يمثل العصر الحديث أخطر مرحلة في التاريخ الإنساني؛ تهددت فيه روحه، وتعرض فيه قلبه لمخاطر مرعبة، بسبب هيمنة المادة، وسطوتها. وقد كان ذلك حافزا لظهور مدارس فكرية، ومذاهب أدبية تحاول استعادة الإنسان في مواجهة عصر سعى جاهدا أن يستعبد الإنسان، وأن يخضعه باسم الآلة.

لقد شاهدت عناوين كثيرة باسم: كي لا نمضي بعيدا، وباسم: استنقاذ الروح، وباسم: العودة إلى المنابع، وباسم: الجذور، وبأسماء أخرى كثيرة.

ولم ينتبه كثيرون في هذا السعي المحموم أنه كان يصب في باب الانتصار للتصور الإسلامي الذي يعلي من قيمة طهارة القلب، ونقاء الروح. لقد ورثنا عن النبي ﷺ أن صلاح المضغة المسماة بالقلب إيذان بصلاح الإنسان وقبوله في الطاهرين، الفائزين، يقول ﷺ: (في الحديث المتفق عليه): «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله».

ومن أجل ذلك، وبعد تاريخ طويل من تدويخ الأيدولوجيات الغربية للنفس المسلمة بدءا من نحو قرنين ونصف القرن من الزمان - ولا يزال مستمرا - ظهرت اتجاهات كثيرة حاولت أن تتجاوز هذا العصر إلى عصور فهمت طبيعة الإنسان الحقيقية، وأرادت استعادته واستنقاذه من حالة الغياب والاغتراب.

الرقائق: مفهومها وأدبياتها

للرقائق مفهوم قديم استعمل بتسميات متعددة، وهو لفظ دال على ما به يقظة القلب ولينه ورحمته. وهو يرادف ألفاظا مثل: الزهد، وإصلاح القلب وإحياؤه.

وقد غلب استعمال مصطلح الرقائق وصار علما على يقظة القلب ولينه وذهاب قسوته.

وقد كان التأليف فيه قديما في حضارة الأمة المسلمة، لكنه كثر في العصر الحديث، وتنوعت أشكاله ومنهجياته واتجاهاته ويمثله من هذه المؤلفات ما يلي:

- إبراهيم عمران: السكران في رقائق القرآن.
- أحمد فريد في كتابه: البحر الرائق في الزهد والرقائق.
- سعيد حوى في: المستخلص في تزكية الأنفس.
- صلاح الدين سلطان في كتابه: الوسائل العملية الخمسة لإصلاح قسوة القلوب.
- عبدالعزيز سلمان في كتابه: موارد الظمآن في دروس الزمان.
- فتحي يكن في كتابه: قوارب النجاة في حياة الدعاة.
- محمد الغزالي في كتابه: جدد حياتك.
- محمد الغزالي في كتابه: الجانب العاطفي في الإسلام.
- محمد الغزالي في كتابه: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.

وهذه نماذج غير حصرية بطبيعة الحال، لكنها دالة على غيرها باعتبار موضعها من التأليف المعاصر، شهرة وريادة. وفحصها منبئ عن مجموعة من العلامات المهمة على طريق قراءة هذا التراث المعاصر:

أولا- اتفاق التوجهات المختلفة على أهمية الرقائق في التكوين والبناء الإنساني للمسلم المعاصر، فقد أظهرت هذه القائمة المختارة أن التنوع في الانتماءات الفكرية مجتمع على قيمة هذا الباب العلمي، وهو ما تعكسه قراءة مذاهب المؤلفين.

ثانيا- الامتداد المكاني، بمعنى أن التأليف في الرقائق امتد فغطى مساحات شاسعة للعالم الإسلامي من المشرق والمغرب، والتوسع في استكمال القائمة يكشف عن هذا الذي نقرره؛ ذلك أن التأليف في الرقائق تجاوز الجغرافية العربية لتظهر أمثلة له في تركيا (سعيد النورسي) وفي شبه الجزيرة الهندية وإفريقيا وأوروبا.

ثالثا- الامتداد الزمني المعاصر؛ بمعنى أن التأليف في الرقائق تواصل وامتد زمنيا منذ فترة مبكرة في العصر الحديث، صحيح أنه زاد وتراكم في القرن العشرين وما بعده لاعتبارات كثيرة، لكنه لم يغب منذ ظهر في التاريخ الإسلامي القديم.

رابعا- غلبة الأبعاد الحركية على مؤلفي كتب الرقائق، وهو ما يؤكد تنامي العناية بالتأليف في الرقائق

لغايات تربوية وتكوينية وإصلاحية معا.

خامسا- التنوع المنهجي والتأليفي؛ ذلك أن كتب الرقائق في العصر الحديث اتخذت أشكالا منهجية، واتجاهات تأليفية متعددة يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- اتجاه تلخيصي عمد إلى بعض من كتب التراث، فلخصها، وانتقى أوضح نصوصها: (أحمد فريد في البحر الرائق).

ب- اتجاه عملي عمد إلى تكثيف الوسائل وتركيزها وتمييز بعضها من بعض، والإرشاد إلى كيفية تحققها في النفس، وطرق تحصيلها: (صلاح الدين سلطان في: الوسائل الخمسة لإصلاح قسوة القلوب).

ج- اتجاه أسلمة المنجز الغربي، وأقصد به ما ظهر استجابة ومواجهة لعدد من الكتابات التي ترجمت إلى العربية تريد حمل الإنسان على استعادة حيويته وتجديد حياته، وهو المنهج الظاهر الذي حكم الشيخ الغزالي في تأليف كتابه: جدد حياتك، يقول (ص ١٢ من كتابه، القاهرة سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م): «لقد حرصت في كتابي (هذا) على إحياء الحكمة العربية الأولى، وإمتاع القراء بطرف منها في سياق المعارف الدينية والعلمية التي يجدونها. وإذا كان «دييل كارنيجي» يحيا بقرائه في جو أميركي بحت فمن الواجب أن أعيش مع قرائي في جو عربي خالص».

د- اتجاه تصحيحي، ويقصد به إعادة قراءة الموروث الإسلامي، وتنظيمه وتصحيح الأوهام التي علقت به في مسيرته الطويلة نحو العصر الحديث، ويمثله كتاب الجانب العاطفي في الإسلام.

هـ- اتجاه تأسيسي، ويعمد أصحابه إلى حياة النبي ﷺ بما أنه أسوة المسلمين المركزية، فيلتقطون ما به قيام منهج في إحياء القلوب، ومحاصرة قسوته وإعادته إلى اليقظة والرفق واللين والرحمة، ويمثله كتاب الغزالي: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، وكتاب سعيد حوى: السيرة بلُغة الحب والشعر.

في خطاب المصادر

لم يكن التأليف في الرقائق في العصر الحديث منقطع الصلة بتاريخ العلم في الأمة، ولم يكن وليد هذا العصر الذي جثمت فيه على صدر النفس المسلمة صور من ركام مادي وشهواني كثيف جاءها من طبيعة هذا العصر، وجاءها من هجوم فاجر من قوى شر متعددة. لكنه استمرار لتراث عريق ممتد في رحم تاريخ المسلمين، وهو الأمر الذي يؤكده ويدعمه فحص المصادر المؤسسة للتأليف المعاصر في الرقائق، وتتلخص هذه المصادر المؤسسة فيما يلي:

أولا- الكتاب العزيز

يمثل الذكر الحكيم أهم مصدر يستهدف صلاح قلب المسلم ورعى لينه ورقته وتنزل الرحمة فيه، وبيّن وسائل تقواه، وأقام المسارات على ذهاب قسوته، وهو المصدر الذي تنبه إليه الكتّاب المعاصرون بما أثبتوه من آياته في مؤلفاتهم المختلفة في هذا الميدان.

إن واحدا من محددات زراعة اللين في القلوب تعيينا هو التمسك بالأمل ومحاربة اليأس والقنوط بالتشبث برحمة الله تعالى، وفي هذا السياق نرى الشيخ محمد الغزالي مستثمرا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف:٨٧)، يقول: «لقد تحمّل (يقصد يعقوب عليه السلام) المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحمّل بها الأولى، وظل على تشبثه برحمة الله، يرمق الغد، وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث، وقال لأبنائه:﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف:٨٧).

لقد فطن التأليف المعاصر في الرقائق إلى أن المصدر المركزي التأسيسي الصانع لرقة القلوب ولينها هو الذكر



الحكيم في مستويات متعددة:

أ-في قصص الأنبياء الكرام وهم يواجهون قسوة أعباء البلاغ، وقسوة المعاندين من الكافرين والمنافقين بقلوب تفيض رقة ورحمة ولينا وإنسانية متدفقة نبيلة كاملة.

ب- في الحكم الربانية والقوانين الكلية التي اتصل ظهورها أصالة أو تعليلا أو تذليلا لمطالب هداية الإنسان وتوجيهه وإرشاده.

ج- في التعقيب على أسباب نجاح نفر من الناس رقت قلوبهم ولانت وتراحمت، فكانت جميعها أسبابا لنجاتهم.

د- في التعقيب على أسباب هلاك نفر آخر من الناس قست قلوبهم واستحجرت وجمدت فكانت جميعها سببا لهلاكهم.

هـ- في امتداح أصحاب القلوب الرقيقة الرحيمة اللينة.

و- في ذم أصحاب القلوب القاسية المتحجرة.

وقد تنبه الوعي المعاصر إلى أهمية استقلال رقائق القرآن الكريم في البناء التأسيسي للرقائق في العصر الحديث وهو ما نجده في كتاب: رقائق القرآن، لإبراهيم عمران السكران، الذي يقول في مقدمته (ص:٧): «وكون القرآن هو المعنى لتزكية النفوس، وترقيق القلوب، وتصفية الأرواح وانتشالها من الثقلة الأرضية ليس استنباطا أو وجهة نظر، بل هي حقيقة دل عليها القرآن ذاته كما قال الله تعالى:﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾(ق:٤٥).

ثانيا- السنة النبوية الشريفة

لقد فزع أصحاب مؤلفات الرقائق إلى السنة المطهرة بما أنها كنز

يتدفق بنصوص ومواقف تنفجر بدلالات الرحمة ورقة القلب، وهو أمر طبيعي في ظل الإيمان بأن النبي ﷺ الرحمة المهداة للعاملين، أي الرحمة العامة للخلق جميعا، بدءا باستدعاء الأحاديث التي تعلم ما به صلاح القلوب، يقول محمد أحمد الراشد (ص ٣٥): إن تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود إلى تقوى الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا: وأشار إلى صدره»، إن الفزع إلى الحديث النبوي في مثل هذه السياقات متنوع الوظائف؛ فهو:

أ- يؤسس المعرفة بالقضية المطروحة.

ب- ويطمئن القارئ إلى أن المسألة ليست تهويما يهدف إلى تحقيق رقة القلب.

ج- ويشيع جوا من الإيمانية الآسرة باستحضار الحديث النبوي الكريم الذي يعين على الطاعة والتأسي والتزام حقيقة ما يحمله.

د- ويُذهب غرابة الدعوة إن استشعر المعاصرون غربة ما يدعوهم إليه الدعاة المعاصرون.

وأشكال الأحاديث التي يلجأ إليها المؤلفون المعاصرون خدمة لقضية الرقائق متنوعة يكثر منها:

أ- أحاديث التعليم وتقرير الحقائق على ما رأينا من حديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الشريف ﷺ.

ب- أحاديث الترغيب، ولها تراث ممتد في تاريخ علم الحديث عند المسلمين، تبعث على استفزاز غريزة التعلق بالجميل والممدوح، ليتحول الإنسان إلى إنسانيته رقيق القلب، رحيما، لينا.

ج- أحاديث الترهيب والتخويف، ولها تراث ممتد في تاريخ العلم عن المسلمين تبعث على رد النفس عن القبيح بسبب ما جبلت عليه من الخوف من المؤلم، فترتد إلى مقامات الرحمة واللين والرقة، بسبب من الخوف والرهبة.

د- أحاديث السلوك والوسائل الدالة على تحصيل رقة القلوب ولينها من مثل قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وهو مما استشهد به فتحي يكن في كتابه: بيان بعض وسائل الدعاة في تحقيق النجاة (ص ٩٩): إن الكرب العظيم يدفعه عن المؤمن صدق إيمانه، وصدق التزامه بدينه، وحسن ظنه بالله، وتقربه إليه بالصوم... وهذا ما جعل النبي ﷺ يوصي عائشة رضي الله عنها فيقول: «أديمي يا عائشة قرع باب الجنة بالجوع».

ثالثا- حكمة الكتب القديمة

لقد كانت الحضارة الإسلامية صاحبة فضل غير منكور على التراث الثقافي للعالم، فحفظت ما أمكنها حفظه، ولعل قراءة كتاب المحدث العظيم أبي عبيد القاسم ابن سلام الهروي (ت٢٤٤هـ) في الخطب والمواعظ الذي جمع فيه حكمة ما تبقى من الكتب القديمة دليل ظاهر على ما نقرره.

وقد استعمل بعض المعاصرين ممن ألفوا في الرقائق بعضا من حكم الكتب القديمة المروية عن بعض أنبياء الله تعالى، وبعض الزهاد والعباد.

وقد استثمر المعاصرون من المؤلفين في الرقائق عددا كبيرا من المؤلفات التراثية في المجال نفسه، وقد كانت الاتجاهات الغالبة على استثمارهم هي:

أ- كتب الزهد التراثية، ويأتي في مقدمتها كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك، وكتاب الزهد لأحمد بن حنبل.

ب-كتب الوعظ أو المواعظ، وجاءت كتابات ابن الجوزي وابن قيم الجوزية في الصدارة، كصيد الخاطر، والفوائد.

ج- كتب الطبقات ولا سيما طبقات المحدثين، والأولياء من مثل: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

د- كتب المختارات والمجالس، من مثل البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، وبهجة المجالس لابن عبدالبر، وربيع الأبرار للزمخشري، ونثر الدر للوزير الآبي.

مؤلفات الرقائق في العصر الحديث:

مقال في خطاب الوظائف

إن العناية بالتأليف في الرقائق في العصر الحديث انبنت على وعي ظاهر بقيمتها وأهميتها ووظائفها في الحياة المعاصرة، وهو الأمر الذي دللنا عليه في فترة سابقة، وفيما يلي محاولة تسعى إلى رصد ما توخته هذه المؤلفات من وظائف طمحت إلى تحقيقها:

أولا- الوظيفة الإيمانية

وهي أعلى الوظائف المطموح إليها، ذلك أن غلبة الوجه المادي للحياة حمل كثيرا من المفكرين والدعاة المعاصرين إلى العناية بما من شأنه إصلاح القلوب، وبعثها وطلب يقظتها ورقتها ولينها، وهو الأمر الذي يعيدها إلى مقام الإيمان؛ ذلك أن لله تعالى مرادا في أن تخشع القلوب له وتنيب إليه، وتعمر بالإيمان بعد أن تطهر وتنقى.

ثانيا- الوظيفة التربوية

لقد كان من غايات الإسلام ومقاصده المعلنة تزكية النفوس وترقيها في مدراج الرقي والكمال، وتعاليها عن البهيمية والشهوانية، وهو الأمر الذي سعت إليه هذه المؤلفات مستهدفة تربية الإنسان المسلم المعاصر على

قيم التراحم والسلوك المهذب الذي يفيض من القلوب الخاشعة العامرة على بقية الجوارح؛ فتثمر تعاونا وتقديرا للآخرين، وتتواصل تواصلا ناجحا وإنسانيا. يقول محمد أحمد الراشد (ص٦): إن تزكية النفس واحدة من مطامح العناية بالرقائق.

ثالثا- الوظيفة النفسية

لقد امتدح القرآن الكريم النفس المطمئنة، وهيأ الأسباب لكي تبلغ إلى الأمان، فكانت وجوه الأمان النفسي واحدة من غايات الإسلام. وكان ترقيق القلوب وصلاحها وفيضان الرحمة منها ظاهر العائد في تحقيق الأمان للإنسانية.

إن الرقائق -وهي تواجه أزمات هذا العصر المادي المتوتر الذي انشغل بالمادة انشغالا يوشك أن يغيب الإنسانية- تطمح عن طريق معالجة هذه الأزمات الطاحنة إلى أن تورث الإنسانية نوعا من الأمان تستعيد به عافيتها وسواءها النفسي.

رابعا- الوظيفة الاجتماعية (التوازن)

إن غلبة جانب على آخر في حياة الإنسان وحركته يظلم الوجود الاجتماعي الإنساني، ذلك أن الله سبحانه خلق الإنسان من مادة وروح، وهيأ له أسباب التوازن، ومن هنا فإن القيام على ترقيق القلب وتحقيق صفائه صانع للتوازن في الوظيفة الاجتماعية. يقول محمد أحمد الراشد (ص ٦): إن الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ القريب لأجزاء الحركة ابتعدت بهم عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية وطغيانها على جوانب أخرى، فترى في منطقة غلبة الجانب التعبدي وتزكية النفس وفي أخرى ترفا فكريا وفي ثالثة ولعا بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية، ومن هنا فإن إعادة الاعتبار لنقاء القلب ولينه وصفائه وترقيقه حاسم في خلق التوازن في حركة الإنسان الاجتماعية.

وتتجلى وظائف الرقائق من الوجهة الاجتماعية في أمور متعددة يمكن الإلماع إلى أشهرها في ما يلي:

أ- ضبط حركة الإنسان مجتمعيا، ليخلق توازنا بين احتياجات البدن واحتياجات الروح.

ب- تصحيح حركة العاملين للإسلام، وردهم إلى مقامات التناسق والموازنة من دون طغيان جانب على آخر.

ج- منح فرص للعلاقات الإنسانية الحميمية لتقوى، وتنشط، وتستعيد عافيتها بعد أن استعلنت الشكوى بتحجر المشاعر بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج والزوجات، وبين أصحاب الأرحام. وهو ما يعني أن كتب الرقائق المعاصرة بإمكانها أن تساعد في تحقيق السلام الاجتماعي، عن طريق تحقيق التراحم بين الخلق.

خامسا- الوظيفة الحضارية

إن تحقيق الاطمئنان للإنسان من جانب التوازن من جانب آخر من شأنه الإسهام في تحقيق مجموعة من العلامات التي تصب في التقدم الحضاري للأمة، وهو ما ينعكس على تجديد الأعمال وإتقانها، والتطلع نحو عمران الحياة.

إن امتلاء القلب بالإيمان والخشية والخشوع والأمان له تأثيره البالغ على تجدد الأعمال وإنجازها وتنويع ما ينفع الوجود منها.

لقد أسهمت ثقافة القلوب الرقيقة منجزات حضارية بالغة الروعة في تاريخ الحضارة الإسلامية تمثلت في تجليات مؤسسة الوقف الإسلامي في مثل:

أ- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للحيوانات الضالة.

ب- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للإطعام والسقيا.

ج- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للمرضى المختلفين.

وقد كانت هذه الأنواع تعيينا، دافعها الأول هو الرحمة واللين والرقة التي تفيض من قلوب الواقفين الذين امتلئوا بمشاعر الرحمة للخلق جميعا.

مقاصد التأليف

إن فحص كتب الرقائق في العصر الحديث بتنوعها المنهجي وتوزعها المكاني والزماني تعلن عن مجموعة من المقاصد الشرعية، ومن العجيب أن نلحظ عددا من المقاصد التي تنتمي إلى قائمة الضروريات، وفيما يلي رصد إجمالي لعدد من هذه المقاصد المستعلنة:

أولا- خدمة مقصد تزكية النفس وتطهير القلب

وهذا المقصد هو أظهر المقاصد استعلانا من عناوين هذه الكتب ومقدماتها، والشواهد من الآيات والأحاديث النبوية التي تمتلئ بها.

ونظر الإسلام إلى القلب بما هو ملاك توجيه الجوارح والموجه لعملها يجعل من تزكية النفس وتطهير القلب مقصدا ضروريا من المقاصد الشرعية التي تسعى إلى تحقيقها هذه الكتب.

ثانيا- تحقيق اطمئنان النفس

إن حفظ النفس بما هو كلية من كليات الشريعة المتفق عليها بالاستقراء يدور في فلكها حفظها مطمئنة غير موزعة ولا مضطربة ولا قلقة، تتفرغ لتحقيق ما خلقها الله تعالى من أجله في هذا الوجود، من توحيده وسعيه في الأرض بالإعمار.

ويدور في فلك هذا المقصد مقاصد أخرى متولدة عنه من مثل:

أ- تحقيق السواء النفسي.

ب- تحقيق التوازن بين مطالب البدن والروح.

ج- تحقيق نوع من جودة الحياة بالتخفيف من المشكلات النفسية.

ثالثا- تحقيق مقصد السلام العالمي

إن مما ظهر في الحديث عن المصادر المعرفية لترقيق القلب أنها واردة من مصادر إسلامية ومسيحية ويهودية، وهو ما يمكن أن يخلق نوعا من قبول المشترك من هذه المصادر مما يمكن أن يخلق حالة من القبول بين الشعوب الإنسانية المختلفة، بما يسهم في تحقيق الأمن والسلم العالمية بين البشر جميعا، ويقلل من النزعات والخصومات والصراعات الدولية.